ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ٢٠ —

تأهبت ظمياء للكلام فاستوقفتها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي . فهالني أن أشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، وضجت في أذني تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بيني وبين ليلى من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو يلتهم حساء البقلة الحمقاء :

« كان رأيي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت في اختيار زكي مبارك لمداواة ليلى المريضة في العراق وهي تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك »

أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك ؟

أنا ما عجزت ، وإنما رأيتها لئيمة لا تحفظ الجميل فضننتُ عليها بالطب والدواء، وأخذت أدرس ماصرت إليه في هوى ليلى. فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت في حياتي من ظلام وضلال

أحبك يا ليلى أحبك !

وإنما كان كذلك لأنه ابتدأ بالعطف ، عطف الصحيح على العليل ، والعطف يؤصّل جذور الحب ويهيّئ القلب للهيام العَصُوف

كانت ليلى تصح على يدي من يوم إلى يوم ، وكان حالي معها حال الجنّان الذي يتعهد إحدى الشجرات بالسقي والرعاية فتنمو عواطفه بنموها من حيث لا يعرف ، ثم تصبح الشجرة وهي معبودته من دون البستان

أحبك يا ليلى أحبك

ورأت ليلى شغفي فلم تفطن إليه ، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء فمضت تناضلني نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر ما نقل المِشرط إلى دمي ، وآه ثم آه مما ينقل المشرط ، فالناس لا يفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومة واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافية لقتل الطبيب

الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الغرائب

ولكن تعليلها سهل . وهي أول درس تلقيته بكلية الطب في باريس

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه ينفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض

وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع في عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضي سائر عمره في استغفار وقد يقتله تأنيب الضمير، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ، فالأول يعاني العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثاني يُجرم نحو نفسه ونحو الانسانية ثم يعيش وهو مستور الحال ، لأنه يجهل خطر ما يصنع

ومن أجل هذه المعاني عشت شقياً في حياتي ، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالي ، وكل شيء يجوز عندي إلا إيذاء الناس ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف ، ولكنه عنف مصطنع ، لأني لا أحشو المسدس بغير البارود ، فيثور من حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص

ويصنع خصومي غير ما أصنع ، لأني غبيّ وهم أذكياء !

هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون ، وكم يبقى الرميُّ على النبال ؟ ! أولئك أعدائي ، والعداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح

ولكن ما ذنبي عند ليلى حتى تفضحني بين قومي وتضيع مستقبلي في مداواة الملاح ؟

ما ذنبي عند ليلى التي هجرت في سبيلها وطني وأهلي ؟

ما ذنبي عند ليلى ؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل؟

ما ذنبي عند ثناياها العِذاب وصوتها الرخيم ؟

أحبك يا ليلى وأستعذب في هواك كل عذاب

— ظمياء ، ظمياء

— عيوني ، عيوني

— هاتي النهم الثقال التي تفضلتْ بها ليلاي . انقليها بترفق فما أحب أن أموت في بغداد ، فمقابرها مهجورة منسيّة ، كأنها مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن يصلّى عليّ فيه يوم أموت ، فساجدها تعرف الجمال في القباب وتجهل الجمال في المحاريب

— أعرني أذنيك يا دكتور

— أعرتك قلبي ، يا ظمياء

— أنت متهم عند ليلى بالشيوعية

— بالشيوعية ؟ وكيف سكتت عني إذاً حكومة العراق ، وبصرها أحدٌ من بصر ليلى ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟

— حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلى تعاقب على ذلك

— وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟

— ما ظلمتك ليلى ، وإنما ظلمت نفسك ، فأنت الذي تقول

أصْباكَ ما خلفَ الستار وإنما خَلْفَ الستائر لؤلؤ مكنونُ

والناس في غفلاتهم لم يعلموا أني بكل حسانهم مفتون

— ما قلت هذا الشعر يا ظمياء

— هو في ديوانك المطبوع

— هذا شعر دسه السفهاء

— وكيف سمحت بنشره في ديوانك ؟

— ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضواً في جمعية أبوللون ، وأرادت الجمعية أن تصحح انتسابي إلى الشعراء فلفقت باسمي طائفة من الأشعار وأخرجتها في ديوان

— ولكن ليلى تقول إن في تركك ما يؤيد هذا المعنى

— وكيف ؟

— في بعض ما نشرت في جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعاني لأنها تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الظباء

— هذا أيضاً مدسوس

— وكيف ؟

— كان لي بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبي ، هو الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتي من المعاني الوجدانية ، فكان يضع اسمي على بعض ما يبدع من صور الوجدان

— أنت تسيء الدفاع عن نفسك يا دكتور

— دليني كيف أدافع عن نفسي ، يا ظمياء ؟

— أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ؟ أنا ألقنك الدفاع عن نفسك . قل إنك تعشق جميع الصور وتهيم بجميع المعاني

— هاتي يدك أقبلها يا ظمياء

— أعجبك كلامي ؟

— ما هذا كلاماً ، إن هو إلا سحر مبين ، فأنا حقاً أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعاني ؛ وظواهر الوجود هي عندي صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات ، فما فيها من حسن فهو صنع فنان ، وما فيها من قبح فهو صُنْع فنّان ، فأنا أدرس المحاسن والمساوى بذوق واحد . وقد أتفلسف يا ظمياء فأزعم أن خَلْق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سوّاهم بعناية ، ثم تلطف فأباحهم التقلب في بقاع الأرض ، وجعل لهم في دولة القبح سلطاناً . فان لم يشكر هؤلاء القباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأتصدق عليهم بالعطف والحنان

— دكتور ، أنا أحبك !

— وأنا أبغضك يا ظمياء !

— أقول لليلى إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية في الحب ؟

— ما تهمني ليلى ، وإنما يهمني أن أحاسب خالق ليلى

— احترس يا دكتور ، فهذا كفران

— سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني ، فما قضيت شبابي في دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أناقشه الحساب ، وسوف تنظرين

— كفرت ، يا دكتور ، كفرت

— الكفر الحق هو أجل صورة للايمان الحق

— وكيف ؟

— ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلى وخدينة الدكتور مبارك ؟

— لست خدينتك

العفو ! العفو ! يا ظمياء

— تشتمني يا دكتور ؟

— إنما أداعبك يا ظمياء ، فاغفري ذنبي

— يغفر الله لك

— ويغفر الحب ؟

— أسأل ليلاك

— غضبة الله ولعنة الحب على ليلاى !

* * *

— ظمياء !

— عيونى !

— تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟

— ليلى تتهمك بما اتهمتْ به الضابط عبد الحسيب

— وكيف اتهمت ذلك المسكين الذى سارت أخبار شقائه مسير الأمثال ؟

— اتهمته بخيانة العروبة

— وهي تتهمنى بخيانة العروبة وقد أذْوَيت شبابى فى خدمة لغة القرآن ؟ ؟

— إن ليلى قرأت خطبتك فى نادى المثنّى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد

— وما الذى عابته ليلى على تلك الخطبة ؟

— العيب فى ذلك أنكم فى مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام

— هذا صحيح يا ظمياء

— وهذه جريمة عربية يا دكتور

— اسمعى يا ظمياء ، ثم بلغى ليلى ما أقول . العروبة يا طفلتى الغالية فى حاجة إلى أسناد قوية من الصداقة والعطف ، وأسناد العروبة لن تكون فى الممالك الأوربية ، وإنما ننشدها فى الممالك الاسلامية ؛ والسياسى الحكيم هو الذى يتعب في خلق الأصدقاء ، والأمبراطورية البريطانية لم تفنها جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير فى خلق الأصدقاء . والاسلام قوة يتودد إليها هتلر وموسوليني ، وتشق روما ولندن وباريس وبرلين فى التعرف إلى مدارج هوا ، وليس فى بلاد الله قوة سياسية إلاوهى تحسب ألف حساب لغضب المصحف فما ذنبي عند ليلى إذا أعلنتُ إسلامى ؟ ما ذنبي عند ليلى وأنا أخلق لقومى وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب ؟

— ولكن الاسلام غير العروبة

— تلك ياظمياء دسيسة استعماريه ، هى دسيسة حيكتْ شباكها لتقويض الأمبراطورية العثمانية . وقد تقوضت لأن الأتراك عجزت حيلتهم عن قرض خيوط تلك السياسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ، وكانوا بفضل الاسلام سادة المشرقين

— إحترس ياد كتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على الموظف

أعترف أنى موظف فى حكومة العراق ، ولكن لاخوف . فأنا أتهيب الشر فى كل أرض ، إلافى العراق ؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصادر حرية الرأى إلا إذا صدرت عن المنافقين ؛ وقد حماني الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عنى حكومة العراق على كثرة ما قلبت من وجوه الآراء فى الصحف والمجلات . فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون

— إن العراق يشق بك ويعطف عليك ياد كتور

— وفى حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوروبا اللئيمة خلقت فكرة العروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ، وقد أحسست هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية فى باريس سنة ١٩٢٧ فقد رأيت معجما فارسيا فرنسيا نشر منذ أكثر من أربعين سنة وفى مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفُرس ؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هى السبب فى ثورة الأتراك والايرانيين على الحروف العربية

— أخطأ الأتراك وسيخطىء الايرانيون

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ ياظمياء ؟ لقد تجشمت مشيخة الأزهر ما تجشمتْ وأنفقت ما أنفقتْ ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة فى إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر فى إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفرس بماضيهم فى خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرت فى إرسال وفد إلى الغازى مصطفى كمال يذكره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا فى الحرب لايصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الايمان بالله والرسول ؟

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هبوا سيئات الحاضر لحسنات الماضي ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم في الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدي فأقنعت وزيرين في العراق ، وفكرتُ في الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفرس . لكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفي إيراني ودعاني الأستاذ ابراهيم حلمي للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ في وطن كان بعض أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفي جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية

— يظهر أنك مؤمن يا دكتور

— أنا ملحد يا ظمياء ، فما يسرني أبداً أن أحشر نفسي في زمرة المسلمين النافلين الذين يفكرون في إصلاح الوثنية الهندية وينقلون عن هداية الثائرين على الاسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع في تاج الاسلام

— أنت مؤمن يا دكتور

— أنا كافر يا ظمياء

— أعوذ بالله !

— وأنا أعوذ بالشيطان !

— تعوذ بالشيطان ؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصدقاً

— اسمعي يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ، فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين

— أنت إذاً تعبد الشيطان ؟

— أنا أعبد الله وأحب الشيطان

— قف عند هذا الحد يا دكتور

— سمعت وأطعت

« للحديث شجون »

زكي مبارك

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

قصة الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في سنها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ....

— ١٤ —

وتمت حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه ؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارترايت ذلك الرجل الذي طعنه في دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه في الوصول إلى مقعد في مجلس الولاية ؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل ؛ ولشد ما تأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذي ما لبث أن برئت ساحته ...

وأي شيء لعمري أجل من هذا ؟ ألا إنه الخلق العظيم يبهج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أي قدوة، وإن لهم في صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا في الأفذاذ القليلين الذين ظهروا في هذا الوجود برهاناً على أنه ثمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء !

وندير الحديث بعد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذي انعقد من الجمهوريين في سبرنجفيلد عام ١٨٥٨ لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن ، ولقد فعلوا ذلك في غبطة وفي حماسة شديدتين

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديموقراطيين في الانتخاب لمجلس الشيوخ ؛ فيلتقي بذلك الخصمان ويكون بينهما هذه المرة جلاد دونه كل ما سلف من جلاد ؛ وينتهي الصراع بينهما فاذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأحراج، ثم إذا هو يفطن إلى طعنة سوف تحول بينه وبين غايته المرجوة فلا يظفر بها أبداً ...